الأدبية فى العصر الجاهلي لم تدم به الحال كذلك ، فقد بدأ النثر بعد ذلك يزاحم سلطانه ويشاركه النفوذ ويحاول أن يدفع به بعيداً عن مكان الزعامة الأدبية ، بل إن العصر الجاهلي نفسه قد شهد ارتفاع مكانة الخطيب على مكانة الشاعر ، ولقد « وضع الشعر من قدر النابغة ولو كان فى الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة » ، وكانت لذلك أسباب عرضنا لها فى غير هذا الموضع[1] ، مما ينبيء عن المنزلة التى استطاعت الخطابة العربية أن تصل إليها قبيل ظهور الإسلام . فاذا ماظهر الدين الجديد وبدأت تعلو كلمته ظهر للخطابة وجه قوى يتأثر به قوام الأدب كله ، ومايصدر عنه من حركة وسكون .

لكن الغريب أن الذين يتحدثون عن طغيان طوفان العصر الجاهلي وامتداده فوق ماتبع ذلك من عصور أدبية إنما يقصرون ذلك على الشعر ويغفلون غيره من فنون القول وفي مقدمتها الخطابة ، فيتحدثون عما فى شعر المخضرمين من الشعراء من امتداد جاهلي ، وعما أحاط شعر البادية وشعراءها منذ ظروف أبعدتهم عن التأثير الإسلامى وطبعت شعرهم بالخصائص الجاهلية التى لم تخضع لقوانين التأثير والتأثر أو لطبيعة التطور بسبب بعدها أو عدم طواعيتها .. ولكن الأدب فى عصر البعثة النبوية بالإضافة إلى ما كان عليه فى العصر الجاهلي لم يكن شعراً فحسب بل كان على أقل تقدير شعراً وخطابة : فإذا قيل إن التحول أو التطور قد سرى بطيئاً فى الشعر ، فهل كان كذلك فى الخطابة ؟

إن الأمر الذى لاشك فيه أن الخطابة استجابت استجابة سريعة للدعوة ، فصورتها وعبرت عنها ، وكانت توأماً لها ، ولازمتها منذ يومها الأول ، ومضت معها فى كل طريق سلكته ، وشاركتها رحلتها ، وأقامت معها حيث حلت ، بل إنها فوق ذلك كله قد اكتسبت من محراب الدين قدسية ، فصبغت

---

(١) راجع للمؤلف — كتاب « القيم الخلقية فى الخطابة العربية » — ص١٥ — ٢١ (بيروت ، ١٩٧٤) .